

النكبة وأثرها على الموروث

الحضاري الفلسطيني

الدكتور

عدنان حسين عياش

جامعة القدس المفتوحة

فلسطين

المخلص:

لقد توصلت الدراسة إلى أنه في فلسطين تراث غني وعريق ففي كل مدينة وقرية تجد فيها آثاراً نادرة ومخلفات تراثية تعود إلى العصور الكنعانية والرومانية والبيزنطية والحقب الإسلامية المختلفة، أثبتت الدراسة أيضاً أن التراث الشعبي الفلسطيني لم يكن موروثاً ثقافياً تناقلته الأجيال فحسب، وإنما هو عمل إنساني وحضاري ساهم في تشكيل الهوية الوطنية الفلسطينية.

Abstract

The study found that there is arich heritag and tradition in palastine. We can find rare remains and residues of heritage in every town and village dating back to the canaanite ages , Romanian and Byzantine eras and different islamic periods. the study also proved that the Palestinian foLklor was not only acultural heritage passed on gener ations but acullural and humanitarian worle that has contri buted to the formation of Palestinian national identity.

المقدمة

فلسطين كانت ومازالت دائماً ملتقى الحضارات على مر العصور، وهناك الكثير من المواقع الأثرية والتاريخية الهامة تنتمي إلى العصور المختلفة. فالمدن الفلسطينية مثل القدس وغزة واريحا والخليل من اقدم مدن العالم، لذلك نجدها غنية بآثارها من الحضارات المختلفة على مر التاريخ من الحضارة الكنعانية إلى الحضارات الإغريقية والرومانية والإسلامية، والكثير من الحضارات الأخرى، التي خلفت الكثير من الآثار المعمارية، كالمدرجات والمعابد والكنائس والمساجد والمقابر وآبار المياه وقنوات الري والمنازل والكثير من الآثار التي أصبحت أمكنة تجذب السياح من أنحاء العالم المختلفة لزيارة الأماكن المقدسة التاريخية، مثل المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وكنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم، والكثير من المقابر القديمة والمزارات المختلفة.

إزاء هذا التحدي الصهيوني، يغدو من الهام التركيز على التراث الشعبي الفلسطيني، بوصفه أحد مكونات الشخصية الوطنية الفلسطينية الحية، خاصة وأن هذا التحدي يتظاهر مع الآثار السلبية للعولمة الثقافية التي تحاول الهيمنة على الخصوصيات الوطنية والقومية وتقزيم التمايزات أو تغطية الملامح والسمات المعبرة عن أي هوية مستقلة، يضاف إلى هذا أن التركيز على قيمة المسألة التراثية بالنسبة لشعب فلسطين وقضيته، يأتي موضوعياً من واقع ديمومة ارتباط هذا الشعب بوطنه، وضرورة تغذية الحقيقة القائلة إن التراث الفلسطيني لم يكن له أن يتكون لولا الصلة الوثيقة للإنسان الفلسطيني بارضه وتاريخه وحضارته، وبهذا المعنى، إن الحفاظ على هذا التراث هو حفاظ على أحد المقومات الرئيسية لخصائص الوطن الفلسطيني وهويته القومية/ الإنسانية، ذلك أن التنصل من الماضي، في الموضوعات المتعلقة بفلسطين، واقعاً وحضارة، يعد جريمة تتكامل نتائجها مع عمليات الاغتصاب والتهويد الصهيونية للبلاد، ففي الحالة الفلسطينية هذه الإنسان والأرض مهددان وعبر خمسة وستين عاماً من النكبة التي هي بحد ذاتها الخطوة الأولى لاقتلاع الإنسان من ارضه وإحلال انسان آخر مكانه، فالصراع في جوهره هو محاولة الهوية اليهودية الإحلال على الأرض وإلغاء أو أنها

الهوية الوطنية الفلسطينية من عن الوجود فالنضال على الأرض الآن يشكل في المرحلة الأولى الدفاع عن الهوية الوطنية والرموز التي تدخل بها كوجود منفرد متميز عن غيره.

لكل شعب من شعوب الأرض حضارة وتراث يفتخر ويعتز به، وللشعب العربي الفلسطيني حضارة عريقة تنتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية، وله تراث في كبير يدل على هويته الثقافية والسياسية في آن معاً.

وقد أدى التراث الفلسطيني دوراً هاماً في تعميق الشعور بالانتماء للوطن وللتاريخ المشترك المتمثل بوحدة العادات والتقاليد والفنون والحكايات والأزياء الشعبية، التي تناقلتها الأجيال، جيلاً بعد جيل (السهلي، ٢٠١١).

وبشكل التراث الفلسطيني خاصة وثقافته عامة، هدفاً رئيساً لمحاولات الطمس والايذاء التعتيم والمسخ وتتخذ هذه الممارسات مسارين أو طريقتين متوازيين.

الأول: التهويد أو اضعاء الصبغة الإسرائيلية على هذا التراث.

الثاني: إلغاء فلسطينية هذا التراث وعروبه وإضعافه ومحوه.

وكل ذلك لهدفين مترامين:

الأول: خلق صلة ما بين اليهود والأرض وكسب الاعتراف العالمي بهذه الصلة.

الثاني: اضعاف الصلة بين الشعب الفلسطيني وبين ارضه، بل بترها كلياً وقطعياً، وتقوم بهذه الممارسات هيئات كثيرة متعددة من وزارات ومكاتب حكومية رسمية أو شبه رسمية إلى مؤسسات وجهات شعبية وعلمية واجتماعية من كل صنف ولون ومن الأمثلة على ممارسات الاحتلال في المجال المادي ما يأتي:

١- هدم مئات القرى والمدن وتدميرها في عام ١٩٤٨ وتشريد أهلها ومسح كل اثر لها وأقامة

المستوطنات اليهودية على أراضي القرى العربية المدمرة.

٢- بعث الأسماء التوراتية لاطلاقها على الأماكن والمواقع المختلفة وإعطاء أسماء عبرية جديدة لطمس كل ما يذكر بعروبة فلسطين.

٣- الاعتداء على المقدسات الإسلامية والمسيحية كالحريق الذي نشب في المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ وحوادث السطو على كنيسة القيامة.

٤- تلاشت الأزياء الشعبية من البيئات الفلسطينية واخذت في الاختفاء واصبح التطريز "إسرائيليًا" والحناء والكحل زينة اسرائيلية.

وفي مجال التراث الفكري حاولت السلطات الاسرائيلية منع تدريس تاريخ فلسطين العربية بينما تدرس تاريخ فلسطين "اليهودي" باسهاب وتفصيل وتركيز وتشديد، وفي الجامعات لا تكاد تخلو جامعة عبرية من قسم يخصص لدراسات "أرض اسرائيل" وتدرسها لطلبتها مشددة على حق ابنائهم واجدادهم المطلق في هذا لتراب الطهور وانها تدعم الأبحاث في هذا المجال.

إن إسرائيل تعرض في متاحفها لافتة تحت عنوان (إسرائيل عبر العصور) ظنا منها أن احتلال التاريخ يصبح حقيقة، فلم تترك إسرائيل شيئاً إلا وأدخلت عليه التزوير والتحريف، فالمعطي الجغرافي الأول الذي قامت عليه إسرائيل أنها أدعت إن فلسطين أرض بلا شعب إلى تزوير التاريخ والعقائد والثقافات ومصادرتها فلم تترك إسرائيل عنصراً "ثقافياً" في الشرق إلا ونسبته إلى نفسها.

إن خط إسرائيل الواضح هو التحريف والتزوير والتزييف التاريخي فقد قام موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلي بسرقة آثار دير البلح وتل الزعرب وتل العجول في الشيخ عجلين وغزة وسرقة آثار تل بطشان على شاطئ غزة.

ولم يسلم التراث الفني كذلك من محاولات الطمس والمسح والتعتيم، مثل الرقصات الشعبية والالحن والاعاني، حيث استغل مصممون يهود الكثير من الحركات لبعض الرقصات وكذلك لبعض الأزياء الفلسطينية لتقديمها في الخارج كفن اسرائيلي (كناعة، ص ٢٣).

مشكلة الدراسة:

تتمثل مشكلة الدراسة في التعرف على ممارسات الاحتلال الإسرائيلي التي استهدفت التراث الفلسطيني وعملت على طمسه وتشويهه وتزويره، فضلاً عن التعرف إلى جوانب التراث التي أسهمت بشكل أو بآخر في تعزيز الهوية الوطنية الفلسطينية في مواجهة المخططات الإسرائيلية.

هدف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى التعرف على تأثير الممارسات "الإسرائيلية" على التراث الشعبي، وكيف أسهم هذا التراث بتنوعه بإيصال رسالة الشعب الفلسطيني إلى العالم من خلال تحديه أشكال الطمس والتهميد والتزوير كافة، كما تهدف إلى إبراز دور التراث في الحفاظ على الهوية الوطنية وكيف شكل التراث الشعبي أحد أدوات المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الإسرائيلي ومخططاته.

أهمية الدراسة:

تعود أهمية الدراسة في أن تناولها موضوع التراث واجباً "وطنياً"، لأنه يشكل جزءاً هاماً من ثقافة الشعب الفلسطيني، ويؤدي إلى تعميق الشعور بالانتماء للوطن، مما يحتم دراسة التحديات التي مر بها الشعب الفلسطيني ولا يزال لإثبات حقه في الأرض والتاريخ الذي تقوم "إسرائيل" على طمسه.

فرضية الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على فرضية واحدة وهي تأثير النكبة "الاحتلال الإسرائيلي" على التراث الشعبي الفلسطيني، وينطلق من هذه الفرضية فرضية أخرى وهي:

تعرض التراث الشعبي الفلسطيني إلى عملية تشويه وتزوير من قبل "الاحتلال الإسرائيلي"

النكبة والطرد والتشريد

انتهت حرب اغتصاب فلسطين عن نكبة لا نظير لها في التاريخ العربي الحديث. وتعددت الأرقام التي نشرت عن حجم التهجير الذي تعرض له عرب فلسطين، فكانت تتراوح بين ٧٥٠ إلى ٨٠٠ ألف نسمة، ووصل العدد في بعض المصادر إلى مليون نسمة، وكثرت الأوصاف والتبريرات التي أعطيت لهذا الأمر، وخاصة في الجانب الإسرائيلي، جري تداول كلمات مثل خروج. هروب، مغادرة رحيل نزوح ... الخ، في حين سعي الصهاينة إلى خنق أي تعبير آخر مثال: طرد. تهجير، اقتلاع، تشريد، إجلاء.. الخ ((إبراهيم عبد الكريم ص ٣٨). وكان التفسير الصهيوني لعملية التهجير يكرر القول إن ملوك الدول العربية ورؤساءها وحكامها وقادة الشعب الفلسطيني هم الذين أوعزوا للسكان العرب أو طلبوا منهم أو حتى أمروهم بترك قراهم ومدنهم، ووصل الادعاء إلى درجة الزعم بأن هذه الأوامر أذيعت على الهواء من محطات الإذاعة في الدول العربية تناشد السكان العرب بترك قراهم والنزوح إلى أماكن آمنة في فلسطين أو الدول العربية (عباس نمر، صحيفة القدس المقدسية ١٩٩٧/٢/٢٧ - ص ١٥). لم تستطع هذه الأضاليل طمس الحقائق، وقد بينت دراسات مبكرة لباحثين كبار (أبرزهم أرسكين تشلدرز ووليد الخالدي) الكذب المتعمد في الرواية الصهيونية، وظهرت إسهامات بحثية غالبيتها للمنتسبين إلى ما يسمى "تيار المؤرخين الجدد" في الكيان الصهيوني قامت بنقد هذه الرواية وتفنيدها وبيان الأسباب التي أدت إلى هجرة الفلسطينيين.

وحسب تقرير أعده المؤرخ الإسرائيلي مثير بأعيل، توزعت أسباب الخروج الفلسطيني بالتساوي على: الخوف الإخراج الإسرائيلي بالقوة. التشجيع على الهروب من قبل اليهود (مخائيل بالومبو، كيف طرد الفلسطينيون، ص ١٦).

وحسب دراسة نشرها المؤرخ الإسرائيلي بني موريس مطلع العام ١٩٨٦، اعتمد فيها وثيقة أعدها فرع الاستخبارات في وزارة الدفاع بتكليف من بن غورين (رئيس الحكومة وزير الدفاع) أو إيجال يادين (رئيس الأركان)، عن المدة من ١٩٤٧/١٢/١ إلى ١٩٤٨/٦/١، كانت العوامل التي

أوردتها الوثيقة لرحيل العرب، هي: (عباس نمر، في صحيفة القدس المقدسية ١٩٩٧/٣/٤، ص ١٥).

العمليات العسكرية للهاغناه على القرى والمدن العربية (مباشرة أو على مواقع مجاورة) اسهمت بنحو ٥٥% من النزوح. - العمليات العسكرية للقوات اليهودية المنشقة (أرغون وليحي)، وفي إحصاء اوردته د. سلمان أبو ستة ضمن "سجل النكبة ١٩٤٨" استناداً إلى دراسة أخرى لبني موريس حول طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين. كانت اسباب النزوح من القرى العربية هي: (سلمان أبو ستة، سجل النكبة، ص ١٠) - الطرد المباشر من قبل القوات اليهودية: ١٢٢ قرية - الهجوم العسكري على القرية: ٢٧٠ - الحرب النفسية: ١٣ - "الخوف من هجوم يهودي متوقع: ٣٨" - تأثير سقوط قرية مجاورة والنزوح منها: ٤٩ - "الخروج الاختياري: ٦" سبب النزوح غير معروف: ٣٢ - المجموعة ٥٣١ قرية وعلى امتداد السنوات الماضية ظلت إسرائيل تنكر تسببها بذلك التهجير، وتفرض سرية تامة على مداولات الحكومة حول طرد الفلسطينيين خلال حرب ١٩٤٨ و على الفظاعات التي ارتكبتها الصهيونيون لتهجير العرب من قراهم، ففي العام ١٩٩٥ مثلاً نشرت محاضر اجتماعات الحكومة الصهيونية المؤقتة (١٠/٥/١٩٤٨، نيسان ١٩٤٩) وكان ٩٥% من النصوص التي حظر نشرها تتعلق بجرائم ارتكبتها الجنود الصهاينة ضد السكان العرب وإجراءات طرد فعلية (تقرير، السفير اللبنانية ١٩٩٥/٢/٩ - ص ٣)، وغني عن البيان أن الحكومة الصهيونية. كانت توظف أعمال الإرهاب والطرد لإنجاز هدف استراتيجي عام هو تفريغ البلاد من سكانها العرب كضرورة لتهويدها.

الاعتداءات الإسرائيلية على الموروث الحضاري والتاريخي في فلسطين المحتلة

١٩٤٨

لم تكن المساجد في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ بعيدة عن الاعتداءات الإسرائيلية فمنذ الاحتلال عام ١٩٤٨، كانت المساجد والأماكن الأثرية عرضة لهمجية الاحتلال الإسرائيلي، الذي

طال كل ما تملكه فلسطين من تراث عميق وحضارة. وافادت مؤسسة الأقصى أن إسرائيل قامت بالاعتداء على ٧٦ مسجداً ومصلي بالهدف والإغلاق والإهمال وحولت مساجد ومصليات كنس ومعابد يهودية، مثل المسجد اليعقوبي في مدينة صفد تحول إلى كنيس يهودي، ومسجد العفولة تحول إلى كنيس، ومصلي الست سكية في طبريا تحول إلى كنيس يهودي باسم راحيل، وهناك مساجد أخرى ومخازن صرفت عن الغاية والهدف الذي بنيت من أجله تم تحويلها إلى حظائر ومنها مسجد البصة قضاء عكا تم تحويله إلى حظيرة خراف والمسجد الجديد في قيساريا ساحل حيفا تم تحويله إلى مطعم. (www.iaqsa.com).

إذا كان هدف التدمير والطمس هو نفي الهوية الفلسطينية، فإن تهويد التراث الفلسطيني أو اسرلته بمعنى انتحال هذا التراث والادعاء بأنه تراث إسرائيلي، هو أسلوب لاستثمار أو توظيف أجزاء من التراث الفلسطيني لصناعة هوية يهودية- إسرائيلية، ولتهميش الهوية الفلسطينية أو إضعافها (محمد نور الدين افاية، ١٩٨٨، ص ٢٢)، وتعدد اشكال هذا الأسلوب، ومنها مثلاً منح اسماء توارثية أو كنعانية قديمة لمسميات عربية فلسطينية، مثل بيت إيل، وبيت داجون، ومرج يزرايل، واليركون، والكيشون، وشيلوه بدلاً من الأسماء العربية: بيتين، وبيت دجن، ومرج ابن عامر، ونهر العوجا، ونهر المقطع، وسيلون، ومن ذلك أيضاً منح الاسم العربي لمستوطنة مقامة على أراضي قرية فلسطينية بعد تحريفه ليكون ذا نكهة عبرية، وبذا يبدو الاسم العربي وكأنه الطارئ تاريخياً والمقتبس عن الأصل العبري، وبخاصة أن لوحات الإرشاد على طرق المواصلات تظهر باهتمام كبير هذه الأسماء العبرية، وتخفي بصورة واضحة الاسم العربي للقرية التي حرفت اسمها ومنح للمستوطنة، وكثيرة هي مثل هذه المستوطنات مثل: كدوميم المحرف اسمها عن كفر قدوم، وجيبون عن قرية الحبيب، ومعالية ليونا عن قرية اللبن، وريمونيم عن قرية رمون، وتسوبا عن قرية صوبا، وكسالون عن قرية كسلا، وكفار حطين عن حطين، وساسا عن سعسع وغيرها الكثير (حداد ١٩٨٦، وعراف ١٩٩٦، وعلقم ١٩٩١).

ومن الأساليب الإسرائيلية انتحال الملابس الشعبية الفلسطينية والادعاء بأنها ملابس إسرائيلية ونذكر هنا بصورة المضيضة في شركة إل عال الإسرائيلية التي نشرتها صحيفة الجير وسالم بوست في مطلع عام ١٩٨٠، وردت عليها رئيسة جمعية إنعاش الأسرة المرحومة سميحة خليل بمقالة صحفية، وكانت القصة دافعا لعدد من أعضاء مركز التراث الفلسطيني بالقيام بدراسة مفصلة عن الملابس الشعبية الفلسطينية عام ١٩٨٢، وكما أن الإسرائيليين ضموا لأحد أرشيفاتهم الأزياء الخاصة بأهالي سيناء على أنها أزياء إسرائيلية. (www.akhbarelyoum.org)

وأن الإسرائيليين ينتحلون الأكلات الشعبية العربية والحلويات، ومنها الفلسطينية كالحمص والفول والفلافل، ويسوقونها معلبة أو تقدم في المطاعم على أنها أكلات شعبية إسرائيلية، وقد حصلت مشادة بين رئيس الوفدين الفلسطيني والإسرائيلي حول الحمص والفلافل في اجتماع كان قد عقد في اليابان قبل مدة ليست طويلة ولا يقتصر الانتحال والتهويد على التراث المادي، بل يتعداه إلى التراث الفني، إذ تقدم بعض الأغاني والدبكات والموسيقى العربية والفلسطينية على أنها إسرائيلية، وقد فازت فرقة باقة الغربية في مهرجان الفنون الشعبية في إيطاليا بالدرجة الأولى باعتبار أنها يهودية كما قدمت دبكات إسرائيلية في حين أن الفرقة والدبكة فلسطينيتان). (العفيفي ١٢٤). (elafifi1956@yahoo.com)

كذلك امتهن الاسرائيليون السطو والسرقه وذلك بطرق عدة مستعملة لتحقيق عملية "السرقه" كالاختلاس أو الاستغفال، أو الخطف، أو السطو، وعلى الرغم من أن الإسرائيليين استعملوا سائر هذه الطرق في السرقه، فأن السطو، أي السرقه عن طريق استعمال القوة أو توظيفها لغرض السرقه، هو أكثر الطرق استعمالاً من أجل سرقه التراث الفلسطيني. وكما سطا الإسرائيليون على الحاضر ممثلاً بالسطو على الأرض والبحر والجو والشجر والحجر، فقد سطوا على التاريخ والتراث، وسرقوا ما أمكنهم سرقته منهما، وفي مجال التراث الشفوي ينتحل الإسرائيليون الحكايات الفلسطينية والعربية، ويذكر الدكتور منعم حداد أنه حتى صيف عام ١٩٨٦ كان في أرشيف

الحكايات الشعبية الإسرائيلية (١٨٥٠٠) حكاية كان قد صنف منها (١١٩٤٤) حكاية على أنها حكايات إسرائيلية، ولكن منها ما نسبته ٦٥% حكايات من يهود الدول العربية والإسلامية، ومنها (٢١٥) حكاية فلسطينية (حداد ١٩٩١، ١٠٩ - ١١١)، بعد الاحتلال الإسرائيلي لبقية فلسطين عام ١٩٦٧، بدأت حملة إسرائيلية واسعة من قبل الأفراد والمؤسسات لنهب الأدوات الفنية المنتجة شعبياً كالأدوات الفخارية ومصنوعات القش والمطرزات وسواها، وقد استعملها الإسرائيليون إما لتزيين بيوتهم وأماكنهم العامة، أو أنها تسربت إلى المتاحف الإسرائيلية لتنضم إلى ما يسمى "التراث الشعبي الإسرائيلي"، وقد استغل الإسرائيليون الوضع الاقتصادي للباعة الفلسطينيين من جهة، واستغلوا جهلهم بهذه المنتجات وخطورة نقلها إلى الجانب الإسرائيلي، إذ لم يكن الفلسطينيون يدركون معنى هذه الحملة الواسعة في الصراع على الهوية، وربما نجد لهم العذر لأنهم لم يكونوا يخشون على هذه المنتجات الفنية لأنها ملكهم ومن إنتاجهم المتواصل عبر العصور (سعيد، إدوارد، ٢٠٠٠، الاختلاق، الذاكرة والمكان العدد ١٠٤) (العيسة ٢٠٠٣، ١٢١ - ١٢٦).

ويبدو كل من السطو والسرقة على التراث الفلسطيني في إقامة الجدار الفاصل كذلك، فالجدار منع تواصل الفلسطينيين مع بعضهم البعض وهذا في حد ذاته عامل لتفكيك الثقافة الفلسطينية، وقد ابتلع الجدار خرائب ومناطق أثرية واسعة هي جزء من التراث الرسمي والشعبي على حد سواء (البرغوثي، عبد اللطيف (١٩٨٧) مجلة صامد، العدد ٢٣ (٦٨ - ٦٧) وقد ذكرت مصادر فلسطينية كثيرة بعد هذه الحرب والمواقع منها مثلاً موقع خربة الشمس بين قريتي قفين وباقه الشرقية، وخربة أم قصر بين قريتي قفين والنزلة الشرقية www.Islamicnews.net. وأن "السرقة والتخريب للآثار طالت مناطق بأكملها في قرية طليلية الواقعة بين بيت اكسا وبيت حنينا حيث أقيمت عليها مستوطنة راموت إلى الشمال من القدس، وبنيت مستوطنة جبعات زئيف إلى الشمال من قرية الجيب على أنقاض عدد من الحرب... ومن الجدير بالذكر أن قرية الجيب شمال القدس تعد من أغنى مناطق القدس في موجوداتها الأثرية وقيمتها العلمية، فهي تحتوي على آبار، ومدرجات

وعيون محفورة بالصخر وأقبية وأواني فخارية وأدوات صناعة الزيت والعنب، وقد تعرض هذا الموقع لسرقة وإهمال وعبث خطير "info.info Palestine") بقي أن أشير إلى سرقة مخطوطات البحر الميت، والتي هرب بعضها إلى الولايات المتحدة وإلى إسرائيل، وبعد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧ وسيطرتها على المتحف الفلسطيني (متحف روكفلر) سرق الإسرائيليون ما بقي منها، فضلاً عن ما سرقوه من موجودات المتحف وتم نقله إلى الجامعات والمتاحف الإسرائيلية (العيسة ٢٠٠٣ ونظمي) www.Nzami.org.

كذلك امتنهن الاسرائيليون سياسة الكذب والتزوير لتضليل ليس الشعوب الأخرى فقط، وإنما لتضليل الإسرائيليين أنفسهم ولتضليل العرب والفلسطينيين أيضاً، وتطبق هذه الدوائر السياسة نفسها في التعامل مع التاريخ والتراث الفلسطيني، ومن ذلك مثلاً "تحويل قبر يوسف، وهو مقام إسلامي عثماني موجود في مدينة نابلس، إلى ثكنة عسكرية" (العيسة ٢٠٠٣، ١٤١) ثم فتح أبواب المقام للزوار والمتدينين اليهود على اعتبار أنه موقع ديني يهودي. ومن أساليب التضليل أيضاً إهمال المواقع التاريخية والأثرية والبيوت القديمة كما هو الحال في مدينة القدس، ثم السيطرة عليها بحجة خطر انهيارها. ومن الأمثلة أيضاً ادعاؤهم بأن كنيسة بيزنطية في قطاع غزة، هي كنيس يهودي، وكان قد عثر عليها في تل طنيس أو منطقة ميماس قرب ميناء غزة قبل الاحتلال الإسرائيلي (مقال للخالدي). *www.islam.online.net. ومن أساليب التضليل أيضاً كما يقول الدكتور الخالدي أن الإسرائيليين يصنعون - على سبيل المثال عملات معدنية وأدوات، بحيث تعبر زوراً عن مضامين يهودية وتوراتية أثرية في مراحل تاريخية لإثبات جوانب متعلقة بتاريخ اليهود، ويضعونها بعد ذلك في مواقع أثرية متفرقة خاصة في مدينة القدس. وأكد أن الإسرائيليين ينظمون بعد ذلك زيارات للطلبة والسياح وغيرهم في محاولة مكشوفة لقلب الحقائق" (الخالد online.net). *www.islam. ومن وسائلهم والتضليل في إخفاء المعلومات الحقيقية) حول موضوع يكشف

زيف ادعاءاتهم حول هذه المسألة أو تلك، ومنها مثلاً عدم كشف مخطوطات البحر الميت لأن في ذلك ضربة قاصمة لصحة الروايات التوراتية الموجودة حاضراً (العيسة ٢٠٠٣، ١٤٧).

إنكار إسرائيل للتراث الحضاري الفلسطيني

تتطلب أسطورة إنكار وجود الشعب الفلسطيني، إنكار أي تاريخ أو تراث له، إذ أن الاعتراف بوجود تاريخ أو تراث آخر غير التراث الإسرائيلي المفترض، ينسف الأسطورة مما يعنى زيف وبطلان الأساس الذى تقوم عليه الدولة الإسرائيلية، من هنا فإن السياسة الإسرائيلية تقوم على نفي الآخر الفلسطيني وجوداً وتاريخاً وتراثاً وثقافة، وليس بمستغرب إذن أن تصرح جولدا مئير رئيسة الوزراء الإسرائيلي في حينه، لجريدة صاندي تايمز اللندنية في ١٥ يونيو ١٩٦٩ أنه: "لا وجود للفلسطينيين، وليست المسألة أننا أتينا وطردها هم وأخذنا بلادهم، لا، إنهم لم يوجدوا أصلاً" (جارودي ١٩٨٦، ٤٢)، وإمعاناً في التضييل والإنكار، لمن تكشف أو تتكشف لهم الأسطورة وزيفها، فإن الإسرائيليين فسروا وجود عرب فلسطينيين في فلسطين بأنهم بقايا اليهود في هذه البلاد، وينقل الدكتور منعم حداد بعض أفكارهم، فيقول إسرائيل بلكيند مثلاً: "في أرض إسرائيل نلتقي بقسم لا يستهان به من أبناء شعبنا، الذين توقفوا عن العيش معنا منذ ألف وخمسمائة سنة، لكنهم عظم من عظامنا ولحم من لحمنا" (حداد ١٩٩١، ١٠٢)، بل إن ديفيد بن غوريون لا يتورع عن القول:

"إن أكثر المسلمين في عرب أرض إسرائيل يجري في عروقهم دم يهودي، وهم الفلاحون الذين تنكروا لدينهم كيلا يفقدوا أرضهم" (حداد ١٩٩١، ١٠٢)، وتنتهج الدوائر الإسرائيلية سياسية الكذب والتزوير لتضييل ليس الشعوب الأخرى فقط، وإنما لتضييل الإسرائيليين أنفسهم ولتضييل العرب والفلسطينيين أيضاً.

تغيير الأسماء العربية إلى عبرية:

في إطار سياسة طمس الهوية العربية قامت إسرائيل ومنذ العام ١٩٤٩ بإطلاق الأسماء التوراتية على البلدات والقرى العربية التي هدمتها، وقال رئيس وزراء إسرائيل حينذاك ديفيد بن غوريون: "علينا استبعاد الأسماء العربية لأسباب سياسية بما أننا لا نعترف سياسياً للعرب بحق امتلاك البلد" (عويضة، ٢٠١١).

وكان من أبرز اليهود الذين دعوا إلى تهويد الأسماء هو روبرتسون الذي قال جئت لأغير أسماء مئة موقع من المواقع العربية في القدس إلى أسماء عبرية، على سبيل المثال "بركة الغنم التي تقع بالقرب من باب الأسباط، وكانت تسمى في زمن السيد المسيح بـ "باب الغنم" فقد سماها روبرتسون "بركة إسرائيل" والمحجر الروماني الذي تم افتتاحه بين باب العامود وباب الساهرة أطلق عليه "مغارة سليمان" والمصلي المرواني أطلق عليه "إسطبل سليمان" والصخرة أصبحت معبد سليمان، وجبل زيفون أصبح "جبل صهيون. عملت إسرائيل منذ عام ١٩٢٢ على طمس أسماء القرى والمدن الفلسطينية و "عبرتها".

حيث شكلت الوكالة اليهودية لجنة الإطلاق أسماء على المستوطنات الجديدة والقرى القديمة، ومنذ ذلك التاريخ حتى العام ١٩٤٨ تم تغيير أسماء ٢١٦ موقعاً، وفي أول ثلاث سنوات للنكبة قررت لجنة حكومية تغيير أسماء ١٩٤ موقعاً آخر، وفي السنتين التاليتين ١٩٥١ - ١٩٥٣ وبعد أن ألحقت اللجنة بديوان رئيس الوزراء وانضم إليها ٢٤ من كبار علماء التاريخ والتوراة، تم تغيير ٥٦٠ اسماً، وما زالت تقوم بذلك حتى اليوم وقد تمت "عبرنة" ٧٠٠٠ اسم على الأقل لمواقع فلسطينية، فضلاً عن الأسماء التاريخية، والمواقع الجغرافية التي وصلت لأكثر من ٥٠٠٠ موقع وأكثر من ١٠٠٠ مستوطنة. (www.wafainfo.ps)

القرى العربية بين التدمير والاستغلال:

قبل نحو ستة أشهر من إعلان قيام إسرائيل، دعا بن غوريون إلى تطبيق سياسة عدوانية في المعركة الدائرة والمتصاعدة في فلسطين، قائلاً: كل هجوم يجب أن يكون ضربة قاضية تؤدي إلى تدمير البيوت وطرد سكانها (ميخائيل بالومبو، كيف طرد الفلسطينيون من ديارهم عام ١٩٤٨، ص ٤٨).

أعداد القرى المدمرة وأنماط حالاتها:

تتباين المعلومات عن عدد القرى العربية التي دمرت في حرب ١٩٤٨ وبعدها، ومن بين عشرات المصادر المعتبرة أورد سجل "التدمير الجماعي للقرى الفلسطينية" قائمة تضمنت ٤٧٢ قرية، بلغ عدد سكانها (حسب إحصاء ١٩٤٥) نحو ٣٣٨٤٢٤ نسمة، وبلغ عدد بيوتها نحو ٧٠٢٨٨ بيتاً (عبد الجواد صالح ووليد مصطفى، التدمير الجماعي للقرى الفلسطينية. ص ٣٢ / ٣١). وتضمن "سجل النكبة ١٩٤٨" قائمتين وردتا في كتاب "طرد الفلسطينيين لبنى موريس" وكي لا ننسى "لوليد الخالدي، وأضاف إليهما القبائل البدوية في قضاء بئر السبع (التي توازي في عدد سكانها ١٢٥ قرية) بالإضافة إلى قرى أخرى، وبلغ مجموع ما ورد في "السجل" ٥٣١ محلة مكونة من ١٣ مدينة و ٤١٩ قرية و ٩٩ قبيلة وهذا أكبر عدد للتجمعات المدمرة تم تسجيله للنكبة، وتضمن "السجل" معطيات لكشف ميداني أجراه غازي فلاح (بين عامي ١٩٨٧، ١٩٩٠) وشمل ٤١٨ قرية، على النحو التالي:

- تدمير شامل ٢٢١ قرية.

- تدمير جزئي ١٣٤.

- قرى يسكن يهود في جزء منها ٥٢.

- قرى لم يمكن الوصول إليها ١١.

ولا تزال آثار أماكن القري ماثلة للعيان، حيث توجد أسوار نبات الصبار الذي كان يستعمل للحماية وتحديد الأراضي، ولم يمكن إزالته (سلمان أبو ستة، سجل النكبة ١٩٤٨، ص ٩-١١).

تشويه التراث الحضاري الفلسطيني:

لم يعد خافياً كيف يطبق الصهاينة قانون التغيب السكاني والحضاري على التراث الوطني الفلسطيني، وكيف ينتحلون هذا التراث بما يناسب ادعاءاتهم وتوجهاتهم، فيما يطمسون منه مالا يستطيعون تزييفه ونسبته إليهم، بهدف تفكيك الشخصية الفلسطينية وإلغاء خصوصيتها. لماذا؟! لأن هذه الشخصية راسخة بمكوناتها وخصائصها واستمراريتها، ناهيك عن كونها أصيلة وصدامية (مارست جميع أشكال الصراع مع الصهيونية) ووطنية (تجسدت بالدفاع عن الهوية وبالموقف الموحد من قبل المسلمين والمسيحيين في مواجهة العدو) وتوحيدية (على مستوى فلسطين ومحيطها المباشر والوحدة العربية ككل) (عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، ق ٢، ص ١١٨ / ١١٧) إزاء التحدي الصهيوني، يغدو من المهم التركيز على التراث الشعبي الفلسطيني، باعتباره أحد مكونات الشخصية الوطنية الفلسطينية الحية، خاصة وأن هذا التحدي يتضافر مع الآثار السلبية للعولمة الثقافية التي تحاول الهيمنة على الخصوصيات الوطنية والقومية وتقزيم التمايزات وتغطية الملامح والسمات المعبرة عن أي هوية مستقلة. يضاف إلى هذا أن التركيز على قيمة المسألة التراثية بالنسبة لشعب فلسطين وقضيته، يأتي موضوعياً من واقع ديمومة ارتباط هذا الشعب بوطنه، وضرورة تغذية الحقيقة القائلة إن التراث الفلسطيني لم يكن له أن يتكون لولا الصلة الوثيقة للإنسان الفلسطيني بأرضه وتاريخه وحضارته، وبهذا المعنى، إن الحفاظ على هذا التراث هو حفاظ على أحد المقومات الرئيسية لخصائص الوطن الفلسطيني وهويته القومية/ الإنسانية. ذلك أن التنصل من الماضي، في الموضوعات المتعلقة بفلسطين، واقعاً وحضارة، يعتبر جريمة تتكامل نتائجها مع عمليات الاغصاب والتهويد الصهيونية للبلاد (ميخائيل بالومبو، نكبة طرد الفلسطينيين، ص ١٧١).

ضمن التراث الوطني الفلسطيني، ثمة حضور لأسماء المعالم الفلسطينية يعكس جانباً هاماً من هوية البلاد، ذلك أن هذه الأسماء ليست إشارات عابرة تتعلق بالمكان، بل هي تعبير عن الارتباط الموغل في القدم بهذا المكان، إنها تحمل نبض المكان وتاريخه، لاسيما وأنها صدرت بالأصل عن صورة جماعية للواقع، وفي وضعية كهذه، تؤدي الأسماء وظائف عدة دفعة واحدة: اجتماعية. نفسية. عاطفية. قيمية. معرفية. تربوية. نفعية.. الخ. وعلى هذه الوظائف تدور المعركة مع الكيان الصهيوني بشأن عملية تغيير أسماء المعالم الفلسطينية، لتؤدي الأسماء الجديدة الوظائف ذاتها لكن في الدائرة اليهودية (الشايب [www. Alajhbar.com](http://www.Alajhbar.com)).

إن أحد المنطلقات المنهجية لعمَلنا هنا، هو أن الكيان الصهيوني قوة محتلة، وبالتالي لا يحق لهذه القوة إجراء تغييرات تستهدف طمس التراث الثقافي للشعب الواقع تحت الاحتلال أو الذي طرد من بلاده بسبب هذا الاحتلال، وعند هذه النقطة تعود المسألة بطبيعة الحال إلى صراع بين المطلق والمطلق، بين النافي والمنفي، بين نقيضين لا سبيل لتألفها، تماماً كما يتعذر الانسجام بين الظلم والعدالة، لقد بنوا مستعمرات على الأرض العربية واستحدثوا بنى واصطنعوا هيئات ومعالم جديدة، ثم قاموا بتسميتها، هذا شأنهم طالما أننا تناول المسألة من زاوية اغتصاب الأرض برومتها، لكن تهويد الأسماء الثابتة على الخرائط وفي الذاكرة أمر يمثل بحد ذاته اعتداء على الشخصية الفلسطينية وعلى الهوية العربية للبلاد. وأمام اعتداء كهذا نحن مدعوون إلى حماية أسماء معالم البلاد من الضياع والاندثار، مدعوون إلى إحيائها في سبيل توثيق الصلة بين الأرض وشعبها، وتعزيز الترابط بين ماضي هذا الشعب وحاضره ومستقبله، هذه هي كلمة السر في إعادة الاعتبار إلى الأسماء العربية، ورفض عمليات التهويد الصهيونية (صحيفة القدس المقدسية ١٥ ص-١٩٩٧/٣/٤).

الخاتمة:

لقد توصلت الدراسة إلى أنه في فلسطين تراث غني وعريق ففي كل مدينة وقرية تجد فيها آثاراً نادرة ومخلفات تراثية تعود إلى العصور الكنعانية والرومانية والبيزنطية والحقب الإسلامية المختلفة، أثبتت الدراسة أيضاً أن التراث الشعبي الفلسطيني لم يكن موروثاً ثقافياً تناقلته الأجيال فحسب، وإنما هو عمل إنساني وحضاري اسهم في تشكيل الهوية الوطنية الفلسطينية، ولقد دل على ذلك وجود نتائج ضخمة من الأدبيات والشواهد التاريخية التي تتحدث عن فلسطين وتظهر مكانتها ورمزيتها لدى المسلمين والمسيحيين في العالم من ناحية، والتراث الذي لا تزال تعبق به أرض فلسطين سواء أكان مادياً أو غير مادي، لا يزال ماثلاً للعيان حيث لم يكن سكان فلسطين مجرد طائفتين على هذه الأرض بل كان لهم حضارة وإرث إنساني في مجال الآداب والفلسفة والتاريخ، فضلاً عن إبداعهم في إشكال النضال والصمود في وجه الاحتلال الإسرائيلي الذي يهدد وجودهم.

أما فيما يخص الفلسطينيين المقيمين في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ فقد توصلت الدراسة إلى أن دولة الاحتلال الإسرائيلي لم تكتف بما هدمته من قري ومنازل عربية وبما صادته من أراض وممتلكات ومن تفريغ البلاد من أهلها، ولم تكتف أيضاً بتهويد الجغرافيا والتاريخ وإنما تخطط وتسعي لطمس ما تبقى من موروث حضاري، ولترحيل من تبقى منهم، فهم يواجهون سياسات عنصرية، تحت مسمى يهودية الدولة تجعل حياتهم صعبة، فما يجري في عكا ويافا وكل المدن الفلسطينية المحتلة عام ٤٨ هو صراع سياسي على الوجود وعلى الحقوق وعلى الهوية.

المراجع:

- ١- إبراهيم عبد الكريم باحث، ورئيس تحرير مجلة الأرض، لدى مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية دمشق.
- ٢- ابو هدبا، عبد العزيز (١٩٩١). التراث الشعبي الفلسطيني جذور وتحديات. ط ١ القدس: مطبعة روان.
- ٣- البشتاوي، محمد (٢٠٠٩) الهوية الفلسطينية في مائة عام (١٩٠٧ - ٢٠٠٧) الزرو، نواف (٢٠١١) الهولوكوست.
- ٤- البرغوثي، عبد اللطيف، (١٩٨٧) مجلة صامد، العدد ٢٣.
- ٥- سعيد، إدوارد ٢٠٠٠. الإختلاق، الذاكرة والمكان.
- ٦- إفاية، محمد نور الدين، ١٩٨٨، الهوية والإختلاف في المرأة، الكتابة، الهامش إصدار افريقيا الشرق.
- ٧- بظاظو، إبراهيم (٢٠١١). دراسة تطوير التراث والفلكلور المتنوع في الأردن واستثماره سياحياً، دراسة تطبيقية على التراث الكردي في الأردن، جمعية منتدى التنوع الثقافي الأردني.
- ٨- جريدة القدس المقدسية.
- ٩- جريدة السفير اللبنانية.
- ١٠- دراج، فيصل، ٢٠٠٢، ذاكرة المغلوبين الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

- ١١- ديفيس، روشيل، ٢٠٠٧، الكتب التذكارية الفلسطينية والسير الذاتية والجماعية، في دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام قراءات في السير والسير الذاتية، (تحرير: عصام نصار وسليم تماري) بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- ١٢- سليمان أبو سته، سجل النكبة.
- ١٣- صايغ روز ماري، ٢٠٠٨، حكايات النساء عن النكبة بين الوجود والمعرفة، ترجمة مرام عوض الله، في مجلة رؤي، العدد السابع والعشرون، مؤسس القطن للبحث والتطوير التربوي، رام الله - فلسطين.
- ١٤- صالح محسن (٢٠٠٩)، دراسات في التراث لمدينة القدس، بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات.
- ١٥- كناعنة، شريف وآخرون (١٩٨٢)، الملابس الشعبية الفلسطينية، فلسطين: جمعية إنعاش الأسرة، لجنة الأبحاث الاجتماعية.
- ١٦- كناعنة، شريف (١٩٩١) "مخطط طمس وجه فلسطين" في أبو هدبا، عبد العزيز، التراث جذور وتحديات، القدس: مطبعة روان.
- ١٧- كناعنة شريف، الهوية الفلسطينية إلى أين: مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطيني، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة.
- ١٨- كناعنة، شريف (٢٠٠٠)، من نسي قديمه... تاه دراسات في التراث الشعبي والهوية الفلسطينية، البيرة: مطبعة أبو غوش.
- ١٩- كناعنة، شريف (١٩٩٢). الدار دار أبونا، القدس: مركز القدس العلمي للدراسات الفلسطينية.

- ٢٠- كناعنة شريف، الهوية الفلسطينية إلى أين. البيرة: مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطيني، جمعية إنعاش الأسرة.
- ٢١- عبد الجود صالح ووليد مصطفى، التدمير الجماعي للقرى الفلسطينية.
- ٢٢- عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، ق ٢.
- ٢٣- ميخائيل بالومبو، كيف طرد الفلسطينيون من ديارهم عام ١٩٤٨.
- ٢٤- المزين، عبد الرحمن، (١٩٨١)، موسوعة التراث الفلسطيني، الأزياء الشعبية الفلسطينية، منشورات فلسطين المحتلة ومؤسسة صامد.
- ٢٥- مصالحة، نور الدين، ٢٠٠٣، إسرائيل وسياسة النفي - الصهيونية واللاجئين الفلسطينيين، ترجمة عزت الغزاوي، مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، رام الله.
- ٢٦- نعيات، حسن (٢٠١١)، الفنون الشعبية الفلسطينية، ط ١، وزارة الثقافة الفلسطينية وجامعة النجاح الوطنية.
- ٢٧- نعيم حداد (١٩٩١) "الاستشراق والصهيونية والتراث الشعبي" القدس: مطبعة روان.
- ٢٨- هارلمبس وهولبورن (٢٠١٠) سوشيولوجيا الثقافة والهوية، (ترجمة حاتم حميد محسن) دمشق: دار كيوان.
- ٢٩- وليد الخالدي، (١٩٩٧). كي لا ننسى، ط ١، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- ٣٠- يوغرست، كارن، ٢٠٠٧، إستحضار الماضي: تقبل الكارثة اليهودية والنكبة الفلسطينية في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، في كتاب عميان عن التاريخ؟!

- ٣١- العرب وألمانيا النازية واليهود، تأليف مجموعة من المؤلفين بإشراف: غرهدهب، بيترفين، رينيه فلدنغل. (ترجمة: محمد جديد)، بيروت - لبنان: شركة قدمس للنشر والتوزيع.

المجلات:

- ١- البرغوثي، عبد اللطيف (١٩٨٧). بين التراثي الرسمي والتراث الشعبي، مجلة صامد، العدد ٢٣ (٦٨-٦٧).
- ٢- سعيد، إدوارد ٢٠٠٠، الإختلاق، الذاكرة والمكان، (ترجمة: رشاد عبد القادر)، عن مجلة الأداب الأجنبية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، العدد ١٠٤، ص ١٢٠.
- ٣- سوكاح، زهير، ٢٠٠٨، الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية نحو نموذج ذاكرتي فلسطين، ففي مجلة رؤي، العدد السابع والعشرون، إصدار مؤسسة القطان للبحث والتطوير التربوي، رام الله- فلسطين.

المواقع الالكترونية:

- ١- وكالة معا الإخبارية، ٢٠١٢/٦/٢٨ راسم عبيدات، صهينة وأسرتة التعليم الفلسطيني، www.maannnews.net
- ٢- عبد الهادي، فيحاء، "حكايها والحفاظ على الذاكرة الجماعية الرفيق يقصر الطريق، صحيفة الأيام، www.falhaab.com ١٤ تشرين أول ٢٠١٢.
- ٣- ٢٠١٣/١/١٥ www.unesco.org منظمة اليونسكو.
- ٤- جميل هلال، "صعود منظمة التحرير الفلسطينية وأفولها" مجلة فلسطين، السفير العربي العدد ١٩ www.palestine.assafir.com، الثلاثاء ١٥ تشرين ثاني ١٩١١ السنة الثانية.

٥- جامعة النجاح الوطنية، مؤتمر الفن والتراث الشعبي واقع وتحديات ٢٠٠٩/١٠/٦
www.najah.edu. المراكز والمؤسسات الفلسطينية في المحافظة على التراث.

٦- وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية (وفا) وسائل تهويد مدينة القدس ٢٠١٣/٣/١٥
www.wafainfo.ps

٧- www.islamtilmes.org السهلي، نبيل (٢٠١١) آثار القدس واليونسكو
٢٠١٣/٤/١٢.

٨- www.islamicnews.net

٩- www.akhabarelyoum.org